جامعة تلمسان

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية

قسم العلوم الاجتماعية

شعبة علم الاجتماع

السنة الثانية –ليسانس-

مقياس علم الاجتماع في الجزائر-السداسي الثاني-

المحور الأول: ظروف نشأة وتطور علم الاجتماع في الجزائر

**المرحلة الأولى: الدراسات الكولنيالية حول المجتمع الجزائري**

عند الحديث عن نشأة وتطور علم الاجتماع في الجزائر نجد أنفسنا أمام معيارين هما: المعيار الأول يتمثل في التأسيس الأكاديمي المرتبط بإحداث فروع وأقسام ومعاهد أي ممارسة السوسيولوجيا في الحقل الجامعي بحثا وتدريسا، فان الانطلاقة الفعلية له كانت سنة 1958م، آما إذا كان المعيار-الثاني- هو التطرق إلى الكتابة السوسيولوجية أو الأقرب إلى هذا التخصص حول المجتمع الجزائري والتي كانت عرضة للجدل، فان الانطلاقة تعود لحقب زمنية سابقة يمكننا الرجوع إلى كتابات روني مونييه1930م أو ربما قبل ذلك في دراسات سباتيي1884 .م.

1-**فترة ما قبل الاستقلال: عن أي سوسيولوجيا نتكلم؟:**

ارتبط وجود السوسيولوجيا في الجزائر بالاستعمار الفرنسي ويصعب علينا من الناحية العلمية أن نتكلم عن سوسيولوجيا علمية نظرا لعدم انتفاء البعد الإيديولوجي والذاتي، بالإضافة إلى جهل البعض من الدارسين لخصوصية وحقيقة الواقع الاجتماعي المحلي و الذي خيم بدرجة كبيرة على الدراسات السوسيولوجية آنذاك، إذ جاءت هذه الأخيرة خدمة للمشروع الكولنيالي قصد السيطرة والهيمنة والتوسع هادفة بذلك إلى تفكيك البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري.

نلاحظ أن الدراسات والأبحاث مع نهاية القرن 19م والى غاية الخمسينيات من القرن 20م انقسمت بشكل حاد ضمن المنظومة الأكاديمية الجامعية الغربية إلى ثلاثة اتجاهات أو مقاربات كبرى وهي:

1-علم الاجتماع لدراسة المجتمعات الغربية المتحضرة ،2-الأثنولوجيا والأنثربولوجيا لدراسة المجتمعات البسيطة والبدائية،3-الاستشراف لدراسة الأديان و الشعوب غيرالأوروبية-العربية مثلا-

نستخلص من هذه المقاربات فكرتان هامتان: أولهما إن الدراسة السوسيولوجية آنذاك حول المجتمع الجزائري ارتبطت بالمقاربتين الاثنولوجية والاستشراق ، ما يجعلها تبتعد عن الممارسة السوسيولوجية المحضة وهذا بطبيعة الحال مقصود ايديولوجيا وهو لغرض أداتي صرف عند ارتباطها بالمقصد الكولنيالي أو الاستعماري وهي الفكرة الثانية الملازمة للأولى..

2-**أنواع الدراسات الكولنيالية حول المجتمع الجزائري**

انقسمت الدراسات الكولنيالية إلى عدة أنواع نذكرها على سبيل الاختصار لا الحصر فيمايلي:

1-الدراسات الاستكشافية التي تخللت الحملة العسكرية: يرجع سبب هذا النو ع من الدراسات إلى طبيعة الفترة التاريخية التي صادفتها حيث تتعلق بتدعيم الحملة الاستعمارية وإنجاحها بكل الوسائل والإمكانات أي الحاجة الماسة إلى بعض المعلومات حول طبيعة السطح الطبيعي والقيم والعادات الاجتماعية وهذه الدراسات تعود إلى ماقبل 1830 ثم تلتها دراسات أخرى بعد الدخول الاستعماري .

أصل هذه الدراسات تعود إلى ما قامت به جماعة من التجار والمغامرين الذين ألفوا كثيرا من الوثائق حول الممالك البربرية ومماليك شمال إفريقيا منه ما قام به **بايسنال** و**شاو** حيث ترك كتابات هامة حول الجزائريين في فترة ما بين 1720 وسنة 1752م حينها كان مسافرا انجليزيا إلى الجزائر قبل أن يعين كممثل للكنيسة لدى قنصل بريطانيا للجزائر، هذه الكتابات كانت تمثل إرشادات وتوجيهات اعتمدها الفرنسيون أثناء دخولهم إلى أرض إفريقيا . من بين أهم الدراسات الاستكشافية هي تلك التي قام بها **ايميل كاريت** حول منطقة القبائل ركزت على الجانب التنظيمي للمجتمع القبائلي والخصوصيات العامة للغة البربرية كعلاقة اللغة بالتنوع الجغرافي، وصف أهم النشاطات الاقتصادية وأهم الثروات والأسواق، وصف الجانب الديمغرافي وتركيبته الاجتماعية وكثافته.

2-الدراسات العسكرية: تميزت الفترة مابين سنتي1830 و1870بهيمنة الاثنوغرافيين العسكريين الذين تصف كتاباتهم السكان الأصليين بأنهم مجتمع شرس ومتوحش. منها دراسة **هانوتو ولوتورنو** حيث كان انجاز هذه الدراسة سنة 1868م، جاءت قبل انتفاضة الكبرى للقائدين المقراني والشيخ الحداد في منطقة الوسط الجزائري أي وصف الوقائع الاجتماعية من العادات والتقاليد والأعراف التي تعكس طبيعة الحياة الاجتماعية للأهالي والعروش خاصة وأنها ارتبطت ببروز المقاومات الشعبية ومدى خطورتها على مستقبل الوجود الاستعماري فانصب اهتمامهم على تحطيم عداوة السكان الأصليين للوجود الفرنسي حيث كانت مقاومة الاحتلال عنيفة وكانت المعرفة تتجه إلى البحث عن سر قوة هذه الجماعات من أجل هزيمتها، فجمع المعلومات كانت قصدية وهي معرفة الثقافة المختلفة والمعادية لثقافة الأوربيين مثل: المعتقدات الدينية والبنى القبلية. كان الهدف هو القضاء على هذه القبائل كتنظيمات حربية لذلك أنشأ ما يسمى بالمكاتب العربية يسيرها ضباط عسكريون لتثبيت أركان الإدارة المدنية وكان الهدف منها دفع القبائل لقبول الفكرة الاستعمارية والاستيطان في الأراضي التي هزم فيها القبائل.

3-الدراسات الأكاديمية: في نهاية القرن التاسع عشر بات معظم المجتمع الريفي تحت رحمة المستعمر الفرنسي بعد فشل الثورة الشعبية سنة 1871 وأصبحت الاثنولوجيا أكثر نضجا وجهوزية تتعدى الملاحظة الاثنوغرافية للسكان الأصليين وتعمل على إنتاج معرفة أكاديمية معترف بها داخل الحقل الجامعي الميتروبوليتاني الفرنسي فحظيت عدة كتابات بالمدح في الحولية السوسيولوجية التي كان يديرها **ايميل دوركايم،** كتب **ايميل مسكريه** كتابه تشكل المدن استبعد في تحليله القرى في مناطق الجزائر –القبائل، الأاوراس، بني مزاب-من دون عودة إلى الإسلام الفرضية القائلة أن الدين هو من أنشاأ المدن أما **ادمون دوتيه** فقد وصف الإسلام بأنه دين بدائي وركز على السحر في المجتمعات المحلية. لقد تحول المجتمع المحلي إلى موضوع لدراسة ممنهجة تحاول أن تكشف أسراره بمختلف أبعاده: العادات والتقاليد، الأخلاق والدين/ الممارسات الخرافية، التنظيم الاجتماعي والسياسي من خلال منظور تاريخي وما يستخلص من هذه الأعمال أنها حاولت أن تقدم نظرة عن هذه المجتمعات بأنها متخلفة دون أن تسعى لتحديثها دون النظر إلى مواضيع مهمة مثل :إضعاف القبائل، انهيار اقتصاد الاكتفاء الذاتي/ إدخال التبادل النقدي/،الهجرة نحو فرنسا والتي أحدثت تحولات جذرية في بنية المجتمع الجزائري آنذاك.

وصحيح أن أبحاث ميدانية هامة أنجزت قبيل الاستقلال كتلك التي قام بها **بيار بورديو** غير أنها لم تلقى الاهتمام إلا في نهاية الستينات من القرن 20م.

إن هذه الازدواجية المضاعفة ممثلة : في انقسام الدراسات السوسيولوجية إلى بحوث استشراقية واثنوغرافية أكاديميا وتسخير الدراسات المجراة ضمنه لأغراض ايدارية وعسكرية ودينية، يطرح أكثر من سؤال عن وجود علم الاجتماع في هذه المرحلة كعلم يحمل حد أدني من المعايير النظرية والمنهجية والأخلاقية.

3-**علم الاجتماع والجامعة في الجزائر:**

لم يدخل علم الاجتماع إلى الجامعة في الجزائر إلا مع إسناد مقياس-الاقتصاد وعلم الاجتماع الجزائري ل **روني مونييه** في نهاية العشرينيات من القرن20م في كلية الحقوق بالجزائر العاصمة، لقد كتب سنة 1930 كتابا تحت عنوان- خليط من سوسيولوجية شمال إفريقيا- وخصص فيه مبحثا كاملا بعنوان -برنامج لسوسيولوجية جزائرية- ويقول من الأسباب التي دفعته لإحداث فرع علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية قائلا: شعورنا بلامركزية التعليم وتطلعات المثقفين في الجزائر بالإضافة إلى معرفة الشعب الذي يسكن معه هؤلاء المثقفين. ويضيف طلاب جامعة الحقوق يريدون معرفة عادات ومؤسسات هذا البلد.وكلمة جزائرية هنا تحيل الى الموضوع لا إلى المرجعية الفكرية، وفي مرحلة الاستعمار الفرنسي ظهرت عدة دراسات تحت مسميات مختلفة مثل:علم الاجتماع الإسلامي،علم الاجتماع البربري ،علم الاجتماع الأهالي كدراسة **سباتيي** سنة 1884م تحت مسمى:دروس في علم الاجتماع الأهالي. وفي سنة 1985م تم فتح فرع علم الاجتماع ضمن كلية الآداب والعلوم لإنسانية في جامعة الجزائر ضمن الإستراتيجية الاستعمارية المتعددة الأهداف معرفة مجتمع الأهالي.

يقول **جمال غريد** : لم تنتقل السوسيولوجيا إلى الجزائريين إلا عدة سنوات بعد الاستقلال ويرجع غيابها أثناء الحملة الاستعمارية إلى الاستعمار نفسه.من ناحية أخرى لم يكن أمام الجزائريين المتمكنين من هذا العلم أن وجدوا أي مجال للعمل الحر ولا العيش الكريم كما كان عليه الحال بالنسبة لبعض المهن كالصيدلة والمحاماة والطب التي كان أصحابها يتمتعون بالدخل الوفير والسمعة الطيبة والمنزلة الاجتماعية المرموقة.من ناحية ثالثة فان السوسيولوجيا كعلم لم توظف في خدمة المقاومة كمشروع كما كان عليه الحال بالنسبة للتاريخ.

في الأخير يمكننا القول أن الرصيد المعرفي للمدرسة الكولنيالية تكون نتيجة الفراغ السوسيولوجي السائد في منطقة بلاد المغرب وهذا يعني أن المدرسة الكولنيالية بجملتها ليست مدرسة سوسيولوجية بما أنها كولنيالية أي استعمارية،أي أنها إيديولوجية، وهذا ما يناقض التوجه العلمي، انطلقت من كتابة التقارير ووصولا إلى الرسائل والأطروحات، وعلى الرغم من أن أعلامها لا يدخلون ضرورة ضمن التخصص السوسيولوجي إلا أن أغلب الدارسين يرون أن السوسيولوجيا هي الغالبة على أتباعها.

**ملاحظة: يمكن التوسع أكثر بالرجوع إلى المراجع الآتية:**

1- فرادجي محمد آكلي: الاشكالية المعرفية للسوسيولوجيا الكولنيالية في الجزائر في كتاب جماعي-علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق وتقديم عبد القادر لقجع، دار القصبة للنشر،الجزائر 2004.

2- الهواري عدي: عالما أنثربولوجيا في المغرب الكبير-ارنست غلنر و كليفورد غيرتز،ترجمة نوري ادريس،مراجعة شوقي الدويهي، المركز العربي للبابحاث ودراسة السياسات ، قطر،2023م.

3-غريد جمال: الزرع الإشكالي للسوسيولوجيا في العالم العربي-حالتا مصر والجزائر- في كتاب جماعي-علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق وتقديم عبد القادر لقجع، دار القصبة للنشر،الجزائر 2004.

4- الزوبير عروس:مدخل في تاريخ الممارسة السوسيولوجية وواقعها-المدرسة الجزائرية أنموذجا في كتاب جماعي مستقبل العلوم الاجتماعية في الوطن العربي،تحرير وتقديم ساري حنفي ونورية بن غبريط رمعون ومجاهدي مصطفى، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،.2014

5- جمال معتوق: علم الاجتماع في الجزائر-من النشأة إلى يومنا هذا، دون دار النشر، ط1، 2006م.

6- عباسي نعمان: قراءة في تاريخ علم الاجتماع في الجزائر،في موقع academia.edu/35886204

أطلع عليه يوم 5/1/2025م.

7- ياسين سعادة: التحليل السوسيولوجي لتاريخ الجزائر-الى اين وصلت النقاشات حول التشكيلة الاجتماعية لجزائر ما قبل الاحتلال الفرنسي،مجلة الخلدونية،العدد01،جامعة تيارت،2013م.